

فلاة الشيعة

الفرق

الذي يحيط بالشيعة عموما يرجع إلى وجود فرق باطنية تنتسب إلى الشيعة لها عقائد وطقوس غير معلنة، وأفكارها من الأسرار التي لا يعرفها غير أنصارها، وما يعلن منها غير ما يخفى.

والإسماعيلية من أشد الفرق غموضا، لأن معظم عقائدها وممارساتها وكتبها ظلت لفترة طويلة في طي التقيّة والكتمان. وقليل من الباحثين من استطاع أن يدرس أفكارها. ومن هؤلاء الدكتور النشار الذي قال عنها: إنها كانت المنحنى الأكبر الخطير للشيعة الإمامية، وكانت إحدى الضربات التي وجهت إلى مذهبهم. وقال عنها الدكتور مصطفى غالب في أهم كتاب صدر عن تاريخ الدعوة الإسماعيلية: إن الحركة الإسماعيلية فرقة من فرق الشيعة المعتدلة، ثم صارت تهدف إلى تكوين مجتمع خاص يتمسك بالتخفي، وقاموا بدور خطير في الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية في عدد من البلاد الإسلامية، وأسسوا أكثر من دولة لهم.. كانت لهم دولة في المغرب أسسها عبد الله المهدي سنة ٢٩٦ هجرية امتدت إلى صقلية وجنوب إيطاليا.. كما كانت لهم دولة في اليمن أسسها (ابن حوشب) سنة ٢٧٠ هجرية.. وكذلك كانت لهم دولة في مصر على يد القائد جوهر الصقلي سنة ١٣٥٨ هجرية.. ودولة في بلاد فارس أسسها الحسن بن الصباح سنة ٤٨٣ هجرية.. ودولة في البحرين أسسها الحسين الأهوازي وحمدان الأشعث وأبي سعيد الجنابي، وزكرويه بن مهرويه سنة ٢٧٠ هجرية.. وكانت لهم قلاع وحصون منيعة في بلاد الشام.. وكانت لهذه الدول آثار في مجرى الحوادث في العصور الوسطى.. وشاركت في حروب امتدت حتى شملت العالم الإسلامي كله.

وكان للإسماعيلية عقيدة دينية خاصة بهم، عملوا على نشرها في العالم بالدعاية المنظمة، واستطاعوا تفويض الدولة العباسية نتيجة نشاط جماعاتهم السرية، واستعدادهم للموت تنفيذاً لأوامر رؤسائهم، وفي هذه الفترة انتشرت الكتابات المليئة بالطعن في مبادئ هذه الحركة واتهامها بالإباحية، والزندقة، والإلحاد، والخروج عن الدين الإسلامي، والطعن في نسب أئمة الحركة.. ولجأ الإسماعيلية إلى إخفاء دعوتهم، والعمل بطرق خفية لنشر مبادئهم والعمل على تفويض أركان الدولة العباسية..

في البداية نشأت هذه الحركة في العراق وفارس كحركة دينية في سنة ١٢٨ هجرية بتعاليم وأفكار الإمام جعفر الصادق، وإن كان بعض الإسماعيليين يدعون أن مذهبهم نشأ منذ قديم الزمان، وقبل ظهور الإسلام، ويقولون: إن هذه الدعوة بدأت منذ عهد إسماعيل بن سيدنا إبراهيم أبي الأنبياء. لكن المؤرخين يرون أنها بدأت منذ عهد الإمام إسماعيل بن جعفر الصادق في عهد الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور الذي كان يطارد أئمة الشيعة في كل مكان، وإن كان تاريخ إسماعيل بن جعفر الصادق غامضاً ومليئاً بالمتناقضات، ويذكر المؤرخون أن الخليفة هارون الرشيد طارد الإسماعيلية.. ولذلك كان أئمة الإسماعيلية مستورين.. لا يعرف أحد مكانهم وتحركاتهم..

وقد اهتمت الإسماعيلية اهتماماً شديداً بالدعاية المنظمة لتحقيق نجاحها حتى تحولت من دور السر والتخفي إلى دور الظهور والحكم، فقسما العالم إلى ١٢ قسماً واعتبروا كل قسم (جزيرة) ولكل قسم منها داعية أكبر أسموه (حجة الجزيرة)، وقسموا كل (جزيرة) إلى ثلاثين منطقة لكل منها داعية معتمد يسمونه (نقيباً) مهمته نشر الدعوة في دائرته، والتصدي للخصوم، ونقل الأخبار والأسرار إلى (حجة الجزيرة) ومنه إلى الإمام، ولكل (نقيب) ٢٤ داعية، منهم ١٢ ظاهرون ومعروفون، و١٢ داعية محجوب مستتر، وبذلك كان جهاز الدعوة والدعاية المنتشر في أنحاء العالم ٨٦٤٠ داعياً لكل منهم اختصاص، وهم درجات، فمنهم من يختص بمجادلة

العلماء والفقهاء علنا أمام الناس، ومنهم من يختص باجتذاب العامة ومحدودي الثقافة. ولذلك أسسوا منهلجا للدعوة والحوار مع المخالفين لهم ومقارعة اللمة باللمة.. وتخصصوا فى تدريب وإعداد الدعاة القادرين على اللمة ومخاطبة كل جماعمة بما يتفق مع طبيعتها وميولها وثقافتها..

ومن الواضح أن تنظيم جهاز الدعوة عند الإسماعيلية لم يكن يقل عن تنظيمات الكوادر فى الأحزاب العقائدية المنظمة فى العصر الحديث مثل الحزب الشيوعى مثلاً.. فهناك الدعاة الذين يكونون (القيادة العليا للدعوة) وهم أعوان للإمام يختارهم بنفسه من أقوى وأكثر الأنصار علما، ويسمى الداعية من هؤلاء (داعى الدعوة) وهو الواسطة بين الإمام ودعاة المناطق، ويرأس مجالس التأويل، وإلى جانب هذه الدرجة الرفيعة كانت لديهم مرتبة أخرى لا تقل عنها هى مرتبة (اللمة) وأحيانا يكون اللمة مستترا لا يعرفه إلا الإمام نفسه، وهناك مرتبة سرية أخرى هى مرتبة (باب الأبواب) لا يعرف أصحابها إلا الإمام فقط، وهؤلاء وصلوا إلى (حد العصمة) وهم لمة على الخلق، وحاملو علم الإمام وأصحاب دعوته، لذلك فإن مرتبة (اللمة) هى أرفع مراتب الدعوة وتلى مرتبة الإمام مباشرة، وهى مرتبة سرية للغاية، واللمة (له فصل الخطاب).



هكذا نرى أن البناء التنظيمى للحركة الإسماعيلية فى منتهى الدقة، وفيه مستويات للقيادة واضحة ومحددة ويتكون الهرم من: (الإمام) وله سلطة الأمر، يليه (اللمة) وله سلطة فصل الخطاب، ثم (اللمة) وله سلطة الحكم على الحق والباطل، ثم (داعى الدعوة) وله سلطة تعريف الحدود العلوية والعبادة الباطنية وهو الرئيس المباشر للدعاة، ثم (داعى البلاغ) وله سلطة الاحتجاج وتعريف المعاد، ثم (النقيب) وهو الذى يحدد الحدود السفلية والعبادة الظاهرة، ثم (المأذون) وله أن يأخذ العهد والميثاق على الاتباع، ثم (داع محصور أو محدود) ومهمته جذب من يجد لديهم استعداداً للاستجابة للدعوة، ثم (جناح أيمن)، و(جناح أيسر) يساعدان النقيب، ثم

(مكاسر) وهو الذى له الحق فى الدخول فى مجادلات مع العامة، ثم (مستجيب) وهو الشخص الذى انضم إلى الجماعة ويؤخذ عليه العهد والميثاق..

مثل هذا التنظيم الهرمى الدقيق لا نجده فى أية دعوة أو حركة دينية أو سياسية أخرى فى تاريخ للتجمعات الإسلامية. وهذا هو السر فى انتشار الحركة الإسماعيلية بصورة لم تحدث فى العالم من قبل.

أما تنظيمات الإسماعيلية فى العصر الحاضر فهى لا تتبع هذا النظام ولم يعد للدعاية الإسماعيلية وجود تقريبا، ولم يعد فى صفوف الإسماعيلية الآن قيادات لديها ثقافة دينية عالية، ولذلك أصبح الاهتمام الأكبر لهذه الطائفة بالقضايا الاجتماعية، وأصبح أهم قياداتهم قيادات اقتصادية وليست قيادات دينية. والوظائف المعروفة الآن هى:

أولا: الهيئة الدينية

وتتكون من سيف الدعوة. وهذه رتبة شرفية فخرية تعطى لكبار زعماء الطائفة. بعدها رتبة (مكى) الذى يشرف على تعيين موظفى المساجد وجباية الأموال ويتأمر المصلين، وفى أغلب الأحيان يكون صاحب هذه الرتبة ممن لديهم قدر محدود من الثقافة الدينية، ثم (كامريا) وهو المشرف على خزانة الطائفة، ثم (واعظ) ومهمته الوعظ وحضور المآتم وتلاوة آيات من القرآن ولا يتمتع غالبا بثقافة دينية.

ثانيا: المجلس الإسماعيلي الأعلى:

مهمة هذا المجلس الإشراف على شئون الطائفة ويتم تعيين أعضائه بقرار من الإمام، ويتألف للجلس من رئيس، وأمين سر، وعدد من الأعضاء قد يصلون إلى عشرة أعضاء.

ثالثا: اللجنة الثقافية :

مهمتها الإشراف على المدارس، واختيار البعثات العلمية، وفى الطوائف الإسماعيلية فى الهند وأفريقيا وباكستان هناك جمعيات خيرية، ونسائية، وصحية، وروابط للطلبة، وهذه التنظيمات أنشأها أغا خان الثالث.

ما هي عقائد الإسماعيلية :

تتلخص عقائد الإسماعيلية في (علم الظاهر) وهو ما يتصل بالفرائض وبأركان الدين، و(علم الباطن) وفيه التأويل والعقائد الخاصة بهم، وقد ذهبوا إلى تكفير من يعتقد بالظاهر دون الباطن أو بالباطن دون الظاهر. ويقولون: (من عمل بالباطن والظاهر معا فهو منا، ومن عمل بأحدهما دون الآخر فالكلب خير منه).

ومن أصول العقيدة الإسماعيلية ضرورة وجود الإمام المعصوم، من نسل الإمام عليّ بن أبي طالب، والنص على الإمام يجب أن يكون من الإمام الذي سبقه، ويتسلسل الأئمة من الآباء إلى الأبناء، بحيث يخلف الأب أكبر أبنائه، والإمامة أو الولاية عندهم من أركان الدين بعد الصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد. فإذا أدى المؤمن كل العبادات وعصى الإمام، أو كذّب به، فهو آثم في معصيته، ولا يقبل الله منه العبادات والطاعات، ويقولون في الظاهر: إن الإمام من البشر ولكن في التأويلات الباطنية يقولون: إن الإمام هو (وجه الله) و(يد الله) وأنه هو الذي يحاسب الناس يوم القيامة، وهو الصراط المستقيم، والذكر الحكيم.. والإمام هو الذي يدل العالم على معرفة الله، فهو لهذا وجه الله الذي يُعرف به الله، وهو يد الله التي يبطن بها الله بأعدائه.

والإمامة عندهم درجات ومقامات أعلاها مرتبة (الإمام المقيم) وبعده (الإمام الأساس) و(الإمام المتم) و(الإمام المستقر) و(الإمام المستودع).. وهكذا.. ثم إنهم يقولون: إن تأويل القرآن واجب، لأن التأويل الباطني من عند الله خص الله به الإمام علياً كما خص الرسول ﷺ بالتنزيل، ويستدلون بقصة موسى مع الرجل الصالح المذكور في سورة الكهف، أما علوم الباطن فهي محاطة بالستر والكتمان لا يعرفها إلا من يستحق ذلك فقط، ولهم نظريات فلسفية متأثرة بالفلسفة اليونانية خاصة أفلاطون وأرسطو..

وفهم عقائد الإسماعيلية ليس سهلاً.. فالشيعة الإمامية الاثنا عشرية يقولون: إن مذهبهم أسسه الإمام جعفر الصادق، والإسماعيلية يقولون: إن الإمام جعفرًا الصادق هو الذى أسس مذهبهم.

والإمام جعفر الصادق من نسل الرسول ﷺ، ومعروف أنه كان من أكبر فقهاء عصره، متمسكا بالكتاب والسنة، يودى رسالته الروحية لإرشاد المسلمين جميعا وليس لفئة أو جماعة معينة، وكان حريصا على محاربة الأفكار الخارجة على الإسلام، وابتعد عن الخلافات على الزعامة والسلطة السياسية.

ولكن الدعوة الإسماعيلية تطورت إلى حد ظهور جماعة قالت بنسخ الشريعة الإسلامية(!) وقال بعضهم: إن الله جعل لأحد الأئمة هو الإمام محمد بن إسماعيل جنة آدم، ومعناها: إباحة المحارم، وإباحة كل شيء استنادا إلى تأويل الآية ٢٥ من سورة البقرة: ﴿وَكَلَّا مَنهَارَعَدًا حَيْثُ شِئْمَا﴾ وقال بعضهم: إن محمد بن إسماعيل هو خاتم النبيين استنادا إلى تأويل الآية ٤٠ من سورة الأحزاب: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ وقالوا إن الفرائض والسنن التى أتى بها الرسول ﷺ لها ظاهر وباطن، والنجاة فى العمل بالباطن.

وفى عهد الإمام الإسماعيلي أحمد بن عبد الله الرضى المتوفى سنة ٨١٧ هجرية كانت الحركة العقلية الإسلامية قد بلغت مداها، وتوسع المسلمون فى ترجمة علوم وفلسفة اليونان، وكان الخليفة العباسى المأمون وراء هذه النهضة العقلية.. فى هذا الوقت ظهرت رسائل إخوان الصفا المشهورة، واعتبرت قرآنا بعد القرآن(!) وقالوا: إنها قرآن العلم كما أن القرآن هو قرآن الوحي، أو هى قرآن الإمامة وذلك قرآن النبوة، واعتبر الدعوة أن رسائل إخوان الصفا وحى نزل على الإمام أحمد بن عبد الله الرضى، وهذه الرسائل تضم أفكارا من الفلسفة اليونانية مختلطة بالعقائد الإسلامية. يقول الدكتور النشار عن هذه الرسائل: إنها ليست فلسفة إسلامية

أصيلة، وإنما هي محاولة لمزج العقائد الإسلامية بفلسفة أفلوطين والفيثاغورية، وهي لاتعبر عن فلسفة أهل السنة والجماعة أو المعتزلة أو الشيعة الإمامية والاثني عشرية، فهي محاولة فلسفية منسقة، ولكنها بعيدة عن الروح الإسلامية. وهذه الرسائل كانت سلاحا بين أيدي الإسماعيلية يحاربون به الدولة العباسية.

يقول الدكتور النشار: إن الإسماعيلية مذهب فلسفي أخذ يتضخم شيئا فشيئا مبتعدا عن روح الإسلام السنّي، وعن روح الإسلام الشيعي الاثني عشرى. ويقول الدكتور عبد الرحمن بدوى فى كتابه (مذاهب الإسلاميين): إن الصفة المشتركة التى يدين بها الذين اعتنقوا نحلة الباطنية هى تأويل النص بالمعنى الباطنى تأويلا يذهب مذاهب شتى قد يصل إلى حد التناقض، فهو يعنى أن النصوص الدينية المقدسة (القرآن) رموز وإشارات إلى حقائق خفية وأسرار، وأن الطقوس الدينية أيضا رموز وإشارات إلى حقائق خفية، بل إن الأحكام العملية (العبادات) هى الأخرى رموز وأسرار. ويقول المؤرخون القدامى: إن فكرة التأويل الباطنى للنصوص والعبادات من وضع أعداء الإسلام حين يؤسوا من القضاء عليه بالقوة فأخذوا فى وضع أحاديث كاذبة نسيوها إلى الرسول ﷺ وأثروا بها على أصحاب العقول الضعيفة وأفسدوا الأحاديث الصحيحة بالأحاديث الكاذبة وبالتأويل. ومن أبرز الشخصيات التى نشرت فكرة التأويل ميمون القداح، وقال عنه الأستاذ محمد عبدالله عنان فى كتابه (الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية): إنه كان ملحدا درس الأساطير الدينية وعلم الكلام والجدل الفلسفى وتظاهر بالإسلام، وبعائناق المذهب الشيعي، واستتر بالدعوة لآل البيت، وانتشرت دعوته فى جنوب فارس وجنوب العراق والبحرين، وانتشر دعائه فى كل مكان يتسترون بالشيعة ويعملون فى الخفاء لبت مبادئ الإلحاد ويخاطبون كل طائفة بما يلائم ميولها وتفكيرها. فكان خطرا على الإسلام ووحدت المسلمين، وقد وضع ميمون بذور الإسماعيلية

الباطنية، وواصل أبنائه هذا الجهد، وكان منهم عبد الله بن ميمون الذي كان يدعى أن الأرض تطوى له فيذهب إلى أى مكان فى لمح البصر، وأنه قادر على معرفة الأحداث والكائنات فى البلدان البعيدة.

كذلك ظهر رجل آخر من دعاة الإسماعيلية الباطنية اسمه محمد بن الحسين ولقبه (دندان) كان يكره العرب ويتحدث عن مساوئهم، فذهب إليه القداح وأشار عليه ألا يظهر ما فى نفسه ويكتمه، وأن يظهر الانتماء إلى الشيعة وبذلك يجد الفرصة للطعن فى الصحابة، ومن الطعن فيهم يمكنه الطعن فى الشريعة، فاستحسن دندان ذلك وأعطى القداح مالا كثيرا لكى ينفقه على الدعاة لهذا المذهب، فسار إلى الأهواز والبصرة والكوفة وخراسان وأرض حمص مع فرقة من دعائه، وتفرقوا فى البلاد، وأظهروا الزهد والعبادة لإغراء الناس باتباعهم وهم فى الحقيقة على خلاف ذلك.. هذا ما جاء فى كتاب (الكامل) للمبرد.

ويصف الأستاذ محمد عبد الله عنان ابن ميمون بأنه أعظم هدّام وأذكى متآمر عرفه التاريخ، استغل حالة التفكك الذى أصاب الشيعة بانقسامهم على أنفسهم، فضم طائفة الخطابية إليه، وكون من الفرق المبعثرة خليطا مضطربا. ويقول الدكتور النشار: إن عبد الله بن ميمون وجد الحقل الخصب فى أنصار آل أبى الخطاب، ثم المنصور، ثم أبى مسيلمة، وبقايا الثورة والفلول الحاقدة على الخلافة التى كانت تتلمس قيادة جديدة ونقطة ارتكاز تنقض بها على الحكم. وسار هذا الاتجاه بتأييد الاتجاهات الشعوبية، ووضع عبد الله بن ميمون يده فى يد الشعوبيين الذين كانوا ينتهزون الفرصة للقضاء على العرب وعلى الإسلام. وما كاد ابن ميمون ينظم جماعته السرية الهائلة فى جنوب فارس حتى بعث الدعاة إلى الأقطار ينشرون مبادئه باسم الدعوة الإسماعيلية والتبشير بالمهدى المنتظر. مدفوعا فى ذلك بالحقد القديم على العرب والإسلام، وبالطموح إلى جمع المهوورين والظافرين فى جماعة سرية واحدة، تؤمن بالتححرر من قيود الشريعة، ويعملون على خداع المؤمنين واستغلال

غفلتهم لتوجيههم إلى مساعدة غير المؤمنين والغزاة على تحطيم الدولة الإسلامية، وبقوة التنظيم المتناسك والطاعة العمياء التي غرسوها في اتباعهم يصل أعداء الإسلام إلى غايتهم، وقد توسع عبد الله بن ميمون في الدعوة الإسماعيلية واستغلها إلى أقصى الحدود وانتشرت فعلا على يديه واختلطت بغيرها من المذاهب. وصادفت هوى في نفوس جماعات مختلفة في العنصر والديانة من شيعة، وسنة، ومسيحيين، ويهود، وصابئة، وماتويين، ولأن عبد الله بن ميمون كان فارسياً متعصباً فقد كان ينظر إلى آل عليّ نظرتة إلى سائر العرب، ومع ذلك استغل محبة الشيعة لهم فاستخدم ذلك وسيلة لتحقيق أهدافه، وجمع أنصاره من أصحاب العقائد والديانات الأخرى من غير المسلمين ومن غير الشيعة، وهؤلاء اعتنقوا الإسلام وعقائد الشيعة في الظاهر وأبطنوا العكس. وكان إيمانهم بأن الأئمة والأديان والأخلاق ليست إلا ضلالاً وسخرية، وأن بقية الناس - أو الحمير كما يسميهم عبد الله بن ميمون - ليسوا قادرين على فهم هذه المبادئ، ولكنه مع ذلك كان يساعدهم لكي يصل إلى هدفه. وقال عنه الباحثون: إنه استطاع أن يؤلف بين أهل الإيمان والزنادقة، وأن يكون منهم حزبا يعمل بقوة على إسقاط الدولة العباسية، وكان له علم خاص لونه أبيض، لأنه كان يزعم أن دينه دين النور الخالص، الذي ستصعد إليه النفوس بعد أن تنتهي من الحياة على الأرض.

□□□

رجل آخر اسمه عبد الله بن سبأ - الذي سبقت الإشارة إليه - تجمع المصادر على أنه كان يهودياً وأسلم في خلافة عثمان، ويذكر المؤرخون في زمانه أنه أظهر الإسلام فقط، وتستر ليخفي هدفه الحقيقي وهو أن يفسد على المسلمين دينهم. وكان ينتقل بين البلدان لينشر أفكار الضلال، فبدأ بالحجاز ثم البصرة، ثم الكوفة، ثم الشام، وأخرجه أهل الشام وذهب إلى مصر، وفي كل هذه البلاد كان يبث أفكاره ويخطط لمؤامراته، فكان أول من قال بالغلو في الإمام علي، والتفت حوله مجموعة كبيرة أطلق عليهم اسم (السبئية).

بعض المستشرقين شككوا في وجود عبد الله بن سبأ، وناقش د. طه حسين ما قيل عنه ولم يقطع بوجوده أو بعدم وجوده، لكن المصادر القديمة لمؤرخي أهل السنة والشيعة تجمع على أنه شخصية حقيقية ونقلوا آراءه وأشاروا إلى خطورة مذهبه. وعبد الله بن سبأ هو الذي أعلن تأليه الإمام عليّ، وهو الذي أنكر موته، ويقول الدكتور عبد الرحمن بدوي: إن معظم المستشرقين لم ينكروا وجود ابن سبأ، ولم ينكروا دوره. وأحمد أمين في كتابه المشهور (فجر الإسلام) يؤكد أيضاً أن عبد الله بن سبأ شخصية حقيقية وأنه لم يجد في أقوال المشككين في وجوده أدلة على ذلك؛ وفي كتاب (حركات الشيعة المتطرفين) للدكتور محمد جابر عبد العال تأكيد لوجود ابن سبأ وتأكيد للمؤامرة. ويقول: إن الخصومة بين اليهود والمسلمين أيام الرسول ﷺ جعلت اليهودية الموتورة تلجأ إلى الحيل أو المؤامرة، وهكذا كانت مؤامرة ابن سبأ لبث بذور الفتنة. وكتاب آخر بعنوان (المهدية في الإسلام) للأستاذ سعد محمد حسن يؤكد أن البحث العلمي جعل العلماء أخيراً يعترفون بوجود عبدالله بن سبأ كشخص له وجود تاريخي، وكذلك الدكتور علي الشابي في كتابه (أثر التراث الشرقي في المذهب السبئي)..

كل ذلك يرد على التشكيك في وجود عبد الله بن سبأ الذي نجده في بعض كتب الشيعة، لكن أحد علماء الشيعة المعاصرين وهو الشيخ محمد حسين الزين العامل في كتابه (الشيعة في التاريخ) يقول: (إن ابن سبأ كان في عالم الوجود، وأظهر الغلو، وإن شك بعضهم في وجوده وجعله شخصاً خيالياً، أما نحن بحسب الاستقراء الأخير، فلا نشك بوجوده وغلوه.. نعم قد غلا ابن سبأ في دينه وتسربت بدعته هذه إلى أفكار جماعة غير قليلة سميت باسمه).

□□□

ما هي أفكار ابن سبأ التي تثير كل هذا الجدل بين العلماء والمؤرخين؟

فى المصادر المختلفة أن ابن سبأ هو أول من غرس ثلاث أفكار خطيرة. فكرة الوصية. وفكرة ألوهية الإمام على، وفكرة الرجعة. عبد الله بن سبأ روج لفكرة أن النبى ﷺ لم يمّت، ولكنه غائب غيباً مؤقتاً، ولا بد من إمام ينوب عنه ويقوم مقامه، وهذا النائب هو الإمام على، وهكذا ابتدع نظرية وصية النبى ﷺ للإمام علىّ بالإمامة من بعده، ولم يكن ابن سبأ أول من قال بفرض إمامة علىّ. ولكنه كان أول من أعلن ذلك وأشهره وجعله قضية كبرى من قضايا المسلمين، وإن كان المقرئى يقول فى (خطط المقرئى): (إن ابن سبأ هو الذى أحدث القول بالوصية للإمام علىّ بالإمامة والخلافة بالنص، وإنه قال: لكل نبى وصى، وكان علىّ وصى محمد، ثم قال: محمد خاتم الأنبياء وعلىّ خاتم الأوصياء) وكان ابن سبأ يشكك فى خلافة وبيعة عثمان ويدعو الناس إلى خلعه ويقول: إنه مغتصب لحق غيره.

بذلك كانت فكرة ابن سبأ عن الوصية هى المسوغ للغلاة اعتمدوا عليها، ولو كان النبى ﷺ قد أوصى بالخلافة بعده لعلىّ لكان أبو بكر وعمر أول من أطاع وباع علياً.

ويقول الدكتور على الشابى: إن الدارس لتطور الفكر السياسى الإسلامى يلحظ أن دعاة كثيرين اتخذوا لهم على مدى التاريخ هذه الوصية مطية لتركيز نفوذ قادتهم السياسيين، وصبغ هذه القيادة بالصبغة الدينية المقدسة، بحيث لا ينقضى حكمهم مهما تكن ظروف الحياة.. ففكرة الوصية إذن ساعدت على تمكين الغلو وتقوية جذوره.

وقد أشار العقاد فى كتابه (عبقريّة الإمام) إلى أن أحاديث كثيرة وردت بشأن حب النبى ﷺ للإمام علىّ واختلاف وجهات النظر عند كل من الشيعة وأهل السنّة فيها، ولكنهم يجمعون على رغم اختلافهم على أن علياً كان من أحب الناس إلى النبى ﷺ إن لم يكن أحبهم على الإطلاق، فهو ابن عمه الذى كفله وحماه، وكان

ربيبه الذى أوشك أن يتبناه، وكان زوج ابنته العزيزة عنده، وكان بديله فى الفراش ليلة الهجرة التى همّ المشركون فيها بقتل من يبيت فى فراشه، وكان نصيره الذى أبلى أحسن البلاء فى جميع غزواته، وتلميذه الذى علم من فقه الدين مالم يعلمه ناشئ فى سنه.. وكما يقول الإمام الدكتور عبد الحليم محمود فإن صلة على بالرسول ﷺ أقدم من الإسلام نفسه.

ويقول الدكتور طه حسين فى كتابه (على وبنوه): إن أهل الكوفة شعروا بالندم على تفریطهم فى الإمام على وتخلفهم عن نصرته بعد موقعة صفين حتى أرهقوه من أمره عسرا، فلما فارقهم، وفارقتهم بموته سماحة الخلق ولين العيش، هاموا فى حبه وقالوا فى تعظيمه وإجلاله أعظم القول، وغلا بعضهم فى ذلك حتى رأوا فيه عنصرا من الألوهية يرفعه فوق غيره من الناس. ومما ضعّف من ندم أهل الكوفة وإفراطهم فى حب الإمام على ما لاقوه من الهوان على أيدي الأمويين.. وفى ذلك أيضا يقول الإمام الراحل الدكتور عبد الحليم محمود فى كتابه (التفكير الفلسفى فى الإسلام): إن أنصار الإمام على أخذوا يذكرون حياته بعد موته بصالح الأعمال وجليلها، وأخذت صورة علىّ عمر الزمن تلبس شيئا من الإجلال والتقدیس والتنزيه والربانية والألوهية.. وهل من مزيد؟.

يضاف إلى ذلك أن الشيعة لاقوا الاضطهاد من الحكام الأمويين والعباسيين وتعرض الكثير منهم للقتل حتى الأئمة، ويصف الإمام محمد الباقى ما لاقته الشيعة على أيدي الأمويين فيقول: (بويح الحسن بن علىّ ثم غدر به، ووثب عليه أهل العراق حتى طعن بخنجر فى جنبه، ثم قُتل الإمام الحسين، ثم لم نزل- نحن أهل البيت- نُستذل، ومُتهن، ونُحرم، ونُقْتل، ولا نأمن على دمائنا ودماء أوليائنا بكل بلدة. وقطعت الأيدي والأرجل على الظن، وكل من كان يُذكر بحبنا سجن، أو نهب ماله، أو هدمت داره).

ولا يزال ذكر ما فعله الحجاج بن يوسف الثقفي بآل البيت وشيعتهم عالقا في الأذهان، لأنه مارس عليهم أبشع صور التنكيل في التاريخ، ولما ولي زياد حكم الكوفة فى عهد معاوية قطع أيدى ثمانين من أهلها بعد فراغه من أول خطبة فيهم، وكان يتتبع الشيعة وهو عارف بهم لأنه كان منهم أيام على، فقتلهم وقطع الأيدى والأرجل وصلبهم على جذوع النخل، وطردهم، وشردهم عن العراق. ولما جاء العباسيون كانوا أشد على الشيعة فى القتل والسجن لأنهم كانوا أكثر معرفة بخفياهم.. وهكذا عاش الشيعة طيلة عهد الأمويين والعباسيين فى مآسٍ متلاحقة.

من الطبيعى إذن أن يكون رد الفعل على هذا الاضطهاد زيادة الغلو والتطرف، ومن ناحية أخرى استغل المفسدون من أعداء الإسلام مشاعر القهر لدى الشيعة فنشروا سمومهم بينهم، واتخذوا من محنة أهل البيت ذريعة لتمجيدهم إلى حد الخروج عن الحدود المقبولة وخلعوا عليهم صفات الألوهية.



الاضطهاد دفع الشيعة إلى العمل فى الخفاء، والتزام السرية فى تحركاتهم، ويقول أحمد أمين فى (فجر الإسلام): (هذه الاضطهادات كان من نتائجها أحكام الشيعة السرية، فهم أقدر الفرق الإسلامية على العمل فى الخفاء وكتمان عملهم حتى يتمكنوا من عدوهم، وهذه السرية استلزمت الخداع والالتجاء إلى الرمز والتأويل) فقد كانوا يخضعون للحاكم فى الظاهر ويتبعون الإمام الشيعى فى السر، ويجذبون الأنصار بالدعاية السرية التى أجادوها.. وبذلك اعتبر بعض الباحثين الشيعة ضمن الجمعيات السرية، وأنها أيضا معارضة سياسية هدفها إسقاط الحاكم وتولية الإمام، ولجئوا لتحقيق ذلك إلى كل وسيلة بما فى ذلك تأويل القرآن، وككل عمل سرى يمكن أن تتسلل إليه أفكار غريبة بسهولة، ومن هنا ظهرت فرق تعتنق تعاليم إباحية وتدعى أنها التعبير عن الفهم الحقيقى للقرآن والسنة، وظهرت جماعات

الغلاة، وظهرت أيضا جماعات تدعو إلى الثورة. وكل عمل يتم في الخفاء لابد أن تتسلل إليه أفكار منحرفة لا يمكن الجهر بها في العلن!

□□□

هل هذه الفرق المتطرفة التي يسميها الباحثون (غلاة الشيعة) من الشيعة فعلا؟ علماء الشيعة أنفسهم يرفضون ذلك. فالشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء له كتاب مهم بعنوان (أصل الشيعة وأصولها) يقول فيه: إن نسبة غلاة الشيعة إلى الشيعة ظلم فاحش، وخطأ واضح. وإنهم ليسوا إلا ملاحدة، وإن الشيعة الإمامية يتبرءون منهم براءة التحريم.

والشيخ محمد حسين الزين له كتاب آخر بعنوان (الشيعة في التاريخ) يقول فيه: إن حشر الغلاة بين الشيعة من تشنيع أعداء الشيعة.

والدكتور أحمد شلبي - الباحث والمؤرخ والأستاذ المعروف - يقول في (موسوعة التاريخ الإسلامي): إن هؤلاء الذين يطلق عليهم الغلاة ومن شاكلهم ليسوا شيعة على الإطلاق، بل ليسوا مسلمين على الإطلاق، وبذلك تُخرج من الشيعة عشرات الفرق ادعت أنها شيعة وليست شيعة.

□□□

وهل يمكن أن ندخل ضمن الشيعة فرقة قالت: إنه لا حاجة لهم إلى المال لأن الأرض ستكون لهم، ودعوا إلى شيوعية المال والنساء، وحكايات هؤلاء كثيرة نجدها في كتب مؤرخي مذاهب الغلاة؟

وهل يمكن أن يكون من الشيعة من يخلع على الأئمة صفات الألوهية ويدعون أنهم يعلمون الغيب، أو يقولون: إنهم أنبياء مرسلون؟ أو يقولون بحلول الله في الإمام؟ وهل من الشيعة من قالوا: إن لهم ديناً ينسخ جميع الأديان - بما في ذلك الإسلام - وإن لهم شريعة جديدة، أو الذين قالوا بتناسخ الأرواح وانتقالها في صورة

الإنسان والحيوان، وإن النفس تحل بعد الموت في جسد آخر، فنتقل نفس الموحد إلى جسد موحد آخر، ونفس المشرك إلى مشرك.. أو من قالوا بأن الصلاة مثل الزكاة مفروضة مرة واحدة في السنة، فمن صلى مرة واحدة في السنة فقد أقام الصلاة، ويزعمون أن ذلك تفسير قول الله تعالى البقرة آية ٤٣: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ فالصلاة والزكاة - عندهم - لها باطن، وما خلق الله من ظاهر إلا وله باطن ويزعمون أن ذلك تفسير قول الله تعالى في آية ١٢٠ من سورة الأنعام: ﴿وَدَرُّوْا ظَهْرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾... وهل يمكن أن يكون من الشيعة هؤلاء الذين يحدثنا عنهم الدكتور مصطفى الشكعة في كتاب (إسلام بلا مذاهب) الذين لا يسمحون لأنفسهم بالصلاة في مساجد عامة المسلمين، والذين يتمسكون بفروض الدين التي تشبه في الظاهر عقيدة المسلمين المعتدلين، ولكن لهم عقيدة باطنية تفسر كل فريضة تفسيراً مختلفاً، فهم يصلون كما يصلون المسلمون ولكنهم يقولون: إن هذه الصلاة للإمام المستور (!) ويذهبون إلى مكة للحج كبقية المسلمين، ولكنهم يقولون: إن الكعبة هي رمز للإمام عليّ؟ وهل من الشيعة هؤلاء الذين يمارسون طقوساً في الخفاء، ولهم كتب عن العقيدة يحتفظون بها في الخفاء ولا يطلعون أحداً عليها غيرهم؟

وهل من الشيعة فرقة أباحت قتل كل من يختلف معهم؟

□□□

وهل من الإسلام، أو من الشيعة، الذين قالوا بإعفاء المتبعين لهم من الصلاة والصيام والزكاة، وخدعوا الناس بروايات محرفة عن النبي ﷺ، وكانوا يفسرون القرآن على غير حقيقته، وقالوا: إن الصلاة والزكاة سبعة أحرف وهي تدل على محمد ﷺ والإمام عليّ، وأن المقصود بالصلاة والزكاة ولاية الرسول ﷺ والإمام عليّ، فمن تولاهما فقد أقام الصلاة وآتى الزكاة، وقد شعر بعض ضعاف الإيمان بالراحة لمثل هذه التخاريف

ووجدوا فيها ما يعفيهم من أداء الفرائض ويبيح لهم للحارم، وكان كل من يدخل في هذه الطائفة يطلب الداعي منه قربانا، لكي يسأل له الله أن يحط عنه الصلاة ويضع عنه هذا الإصر، فإذا دفع المرید ما هو مطلوب منه سمح له الداعي بالتحري من فريضة الصلاة، ويقرأ له قول الله تعالى في سورة الأعراف آية ١٥٧: ﴿يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ ثم يقبل عليه أهل الدعوة الآخرون فيهنئون ويقولون له: الحمد لله الذي وضع عنك وزرك الذي أنقض ظهرك، ثم يرفع عنه تحريم الخمر والميسر، ويخبره الداعي أنهما رمزان لأبي بكر وعمر لمخالفتهمما لعلّ وظلمهما له وأخذهما الخلافة منه، أما الخمر المسكرة فهي حلال، ويتلو قول الله تعالى في سورة الأعراف الآية ٣٢ ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ وقوله تعالى في سورة المائدة الآية ٩٣: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعَمُوا﴾ ثم يحل لهم أكل الميتة ولحم الخنزير بناء على التفسير المنحرف لهذه الآيات. أما الصوم فيفسره الداعي بأنه (الكتمان) ويتلو قول الله تعالى في الآية ١٨٥ من سورة البقرة: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ ويفسر ذلك بأن المقصود هو كتمان الأئمة في وقت الاستتار خوفا من الظلمة، ويستشهدون بقول السيدة مريم في الآية الكريمة ٢٦ في سورة مريم: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ أَنسِيًا﴾ ويقولون: لو كان الله يقصد بالصيام ترك الطعام لقال: إني نذرت للرحمن صوما فلن أتعلم اليوم شيئا، فالصيام إذن هو السكوت عن الكلام. أما الطهارة فهي طهارة القلب عندهم، ويقولون إن المؤمن بدعوتهم طاهر بذاته، والكافر بدعوتهم نجس لا يطهره الماء ولا غيره. ويفسرون قول الله تعالى في الآية ٦ من سورة المائدة: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ بأنه (فإن كنتم جهلة بالعلم الباطن فتعلموه- والعلم الباطن هو حياة الأرواح، وهو كالماء الذي هو حياة البدن). ويفسرون قول الله تعالى في سورة الطارق آيتي ٥، ٦: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۗ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ على أن ماء الرجل طاهر بذاته. ثم تأتي المرحلة

الأخيرة- منتهى الأمر وغاية السعادة- فيتلو الداعى قوله تعالى فى آية ٣٢ من الأعراف:

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ويقول: إن الزينة هنا هى: أسرار النساء التى لا يطلع عليها إلا للمخصوصون، ويتلون قوله تعالى فى سورة النور آية ٣١:

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ والزينة مستورة، ثم يتلو قوله تعالى فى سورة الواقعة آيتى ٢٢، ٢٣: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَلِ اللَّوْلُؤِ الَّتِي لَمْ يَمَسُّهَا فِيهَا مِنُ الْفَنَاءِ ﴿٢٣﴾﴾ فمن لم ينل الجنة فى الدنيا- فى نظر هؤلاء المخرفين المنحرفين- لن ينالها فى الآخرة.. وهكذا أباحوا النساء على الشيوع لأتباعهم.

وكم فى الكتب من انحرافات لا يمكن أن يصدقها عاقل.. وهى منسوبة إلى فرق من الشيعة.. والسذج يصدقون أن هذه الانحرافات يمكن أن يرددها مسلم.. ومع ذلك فقد كان هناك من يرددها فى زمن ما يريد بها إفساد عقيدة المسلمين والإساءة إلى الشيعة. ولا بد من الحذر من هذه المذاهب الفاسدة المفسدة، والشيعة أبرياء منها.

□□□

وفى الكتب حكايات أغرب من الخيال عن جماعات كانت تدعى الإسلام وتدعى أنها من الشيعة وهى أبعد ما تكون عن ذلك.

فى كتاب الدكتور حسن إبراهيم عن تاريخ الإسلام السياسى وغيره من الكتب حكايات عن الحسن الصباح الذى أقنع أتباعه بأن السعادة والشقاء بيده، وأن المعصية هى معصيته هو وعصيان أوامره، وغير ذلك فليست هناك معصية. وكان أتباعه يعتقدون أنه نبي، بل أنه فى درجة أعلى من النبي، وأنه قادر على إدخال من شاء منهم الجنة التى وردت فى القرآن. وبالفعل كانت له حدائق مملأها بكل ما ورد فى القرآن من الفاكهة والأشجار والنخيل، وكان يقدم لأتباعه مخدرات يتناولونها ثم

يُحْمَلُونَ إِلَى تِلْكَ الْحِدَائِقِ، فَإِذَا رَأَوْا مَا فِيهَا- وَهُمْ فِي حَالَةٍ مِنْ غِيَابِ الْوَعَى- أَيْقَنُوا بِأَنَّهُمْ فِي الْجَنَّةِ، وَيَعُودُونَ إِلَى زَمَلَانِهِمْ لِيُحَدِّثُوهُمْ عَمَّا شَاهَدُوا، فَيَزِدَادُونَ جَمِيعًا اعْتِقَادًا فِي نُبُوَّتِهِ، بَلْ فِي أَلُوْهِتِهِ! وَقَدْ اسْتَمَرَّتْ دَوْلَةُ الصَّبَاحِ هَذِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ إِلَى أَنْ انْهَارَتْ عَلَى يَدِ هَوْلَاكُو!

□□□

قصص الغلاة والمتطرفين والمنحرفين كثيرة جدا.. تملأ مئات الكتب.. ومن أراد أن يسئ إلى الإسلام أو إلى الشيعة يجد في هذه الكتب ما يكفي ويزيد.. ومع الأسف، يحلو لبعض من يتصدون للحديث أو الكتابة عن الشيعة أن ينقلوا عن هذه الفرق، ولا يفرقون بين الشيعة المعتدلة وبين الفرق المتطرفة والمنحرفة التي نسبت نفسها إلى الشيعة.

وعلى سبيل المثال نجد في كتاب (غلاة الشيعة وتأثرهم بالأديان المغايرة للإسلام) للدكتور فتحى الزغبى أستاذ العقيدة بالأزهر فصلا كاملا عن تأثر بعض الفرق بالجوسية، وكانت عقيدتهم معروفة فى الجزيرة العربية وأشار إليها القرآن الكريم، وكان للجوس يعبدون النار ويقدسونها، وكان الفرس يعبدون النار ذاتها بعد أن كانوا يعتبرونها رمزا للإله وفيها شئ من صفاته، وقد بقيت عبادة النار بعد أن دخل الإسلام بلاد فارس، وانتشرت بيوت النار فى الإمبراطورية الإسلامية. وحتى القرن العاشر الميلادى كانت معابد النار فى أنحاء بلاد فارس. ويقول المؤرخون: إن هذه المعابد كانت محترمة فى الدولة الإسلامية التى أطلقت الحرية الدينية، فكانت هناك ديانات متعددة مثل المانوية، والمزدكية، والزرادشتية، وللجوسية، ويذكر الشهرستاني أن هؤلاء جميعا كانوا يمارسون طقوسهم فى حرية كاملة، وساعد هذا التسامح على بقاء مذاهبهم. وقد دخل بعض أصحاب هذه الديانات فى الإسلام وتظاهروا بالإيمان به بينما ظلوا يؤمنون بعقائدهم فى الباطن، وكان دافعهم إلى ذلك إما التهرب من دفع الجزية، وإما الطمع فى تولى المناصب فى الدولة

الإسلامية، وإما الرغبة في إفساد العقيدة الإسلامية بالانتساب إليها والإساءة إليها من داخلها. وكانت هذه العقائد تبيح الكثير من للحظورات التي حرمها الإسلام فظل هؤلاء المنافقون متمسكين بعقائدهم وادعوا أنها من الإسلام وأنها من الشيعة.. وهذه العقائد والطقوس والممارسات مما يرفضها العقل لكنها مع ذلك وجدت من يستجيب لها، وفي كل عصر هناك من ينجذب إلى كل دعوة غريبة وشاذة. المهم أننا حين نقرأ في الكتب القديمة- والحديثة- عن فرق تنسب إلى الشيعة ولها معتقدات تخالف مبادئ الإسلام يجب ألا نقع في الخلط بينها وبين الشيعة المعتدلة.

والأهم أن نعرف أن الشيعة المعتدلين يتبرءون من هذه الفرق المتطرفة وأن معظم ما تذكره الكتب القديمة والحديثة عن فرق من غلاة الشيعة لم يعد لها وجود.. معظم هذه الفرق كانت في الماضي وانتهت.. والقليل منها ما زال له وجود ولكن بعد أن غيرت الكثير من معتقداتها القديمة.

لذلك أكرر: يجب أن نكون في منتهى الحذر عندما نقرأ عن فرق الشيعة.. ولا نأخذ كل ما يقال على أنه حقيقة.. فقد دخل في صفوف الشيعة من ليس منهم.. وأساء إلى الشيعة خصومهم وأعدائهم.. كما أساء إليهم أيضاً بعض أنصارهم!.. ويجب أن نعرف ونتعامل مع الشيعة المعتدلين.. وهؤلاء مع أهل السنة في معسكر واحد.